العنوان:	الكنيسة والنخبة السياسية في أفريقيا
المصدر:	شؤون اجتماعية -الامارات
المؤلف الرئيسي:	جالو، حسن سعيد
مؤلفين آخرين:	بالكلحة، عادل(عارض)
المجلد/العدد:	مج 16 , ع 61
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1999
الشهر:	ربيع
الصفحات:	221 - 233
رقم MD:	15867
نوع المحتوى:	عروض رسائل
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	التبشير ، عرض وتحليل الرسائل الجامعية، رسائل الماجستير، أفريقيا، المسيحية، الديانات، نيجيريا، السنغال، الاستعمار، الرق، العبيد، الكنائس، الدعوة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/15867

شؤون اجتماعية
العدد ٦١
ربيـع ١٩٩٩م
السنة ١٦

الكنيسة والنخبة السياسية في أفريقيا

عرض: د. عــادل بالكحلة *

«كان لهم كتاب قيل إنه مقدّس، ولنا أرض. فقالوا خذوا كتابنا وأغمضوا عيونكم. فأخذنا الكتاب وأغمضنا عيوننا. فلما فتحناها، وجدنا الكتاب عندنا والأرض عندهم.

وساعتـها قلنا لهم: (خذوا كتابكم، وارحلوا عن أرضنا)، قالوا: (ليس بعد، لأننا جئنا لنمدّكم)».

جومو كينياتا.

* التقـديم الشكلي:

الأطروحة هي بحث تأهيل للمرحلة الثالثة، باشراف الاستاذ عبدالستار جعبر، بالمعهد الأعلى لأصول الدين بتونس، ضمن شُعبة الأديان والمذاهب، عام ١٩٩٢/١٩٩٣، باللغة العربية.

وقد قدّمها حسن سعيد جالو، وهو باحث من أصل غمبي، دخل إلى تونس بنية تحصيل الباكالوريا (شهادة اختتام التعليم الثانوي)، فإذا به نو

* باحث اجتماعي، مدرّس بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس.

همة أكبر.. فيدخل التعليم العالي، ثم يواصل بالمرحلة الثالثة. وهو الآن بصدد اتمام أطروحته للدكتوراه في موضوع الخدمات المتبادلة بين الإسلام وأفريقيا الغربية ثقافياً.

إنه لايتقن العربية والانكليزية والفرنسية فحسب، بل يتقن الكثير من اللغات الأفريقية، علاوة على معرفته بالفارسية والعبرية. وهو لاينوي أن يضيف لمكتبة أفريقيا الشمالية زيادة معرفة بتراثها، كما يفعل أكثر زملائه الأفارقة هنا، بل يريد أن يعرّفها بطريقة نقدية حديثة بغنى الثقافة الأفريقية الإسلامية، لأنه يعتقد أن هذه الثقافة مهملة في الاهتمام العربي، والمسلم عموماً، إذ اعتبرت طويلاً غير ذات بال وتابعة للمالكية الشمال - أفريقية.

ولذلك، فهو يسعى للاستفادة من أحدث المقولات في الأناسة، والعراقة الأفريقية، وعلم الاجتماع، وعلم الأديان المقارن، نقدياً.

* موضوع الاطروحة:

يبحث حسن جالو في هذه الاطروحة التاريخ السياسي والديني للكنيسة في أفريقيا ماوراء الصحراء.

وقد اختار هذا الموضوع، لضخامة ماوقع في القارة الأفريقية من «*عمليات تنصيرية جماعية لم تستثن أحداً: رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً، مسلمين ووثنيين، ورغم ذلك فإن صداها يكاد يكون معدوماً في مايكتب ويسمع في الدول الإسلامية، إلا شذرات من مقالات غير مركزة ولا منظمة*».

وقد اختار الباحث نموذجين: نيجيريا والسينغال، لأن نيجيريا تمثل ثقلاً كبيراً في القارة الأفريقية عامة، وفي الدول التي استعمرتها انكلترا سابقاً، ولأن السينغال ذات أهمية في الساحة الإسلامية الأفريقية، عموماً، فـ٩٥٪ من سكانها مسلمون، وفي الساحة الفرنكوفونية باعتبارها عاصمة الدول الناطقة بالفرنسية في أفريقيا الغربية.

* البيبليوغرافيا المعتمدة ومصادر المعلومات:

يمكن تصنيفها إلى ٤ أنواع:

أ - **الارشيفات**: مثل التي في ليدن بهولندة، ومركز الدراسات الفرنسية والأفريقية بداكار.

ب - كتب عن تاريخ الكنيسة في أفريقيا.

ت - كتب عن التاريخ والثقافة الأفريقيين.

ث - المجلات والصحف والاذاعات المسموعة (إذاعة فرنسا العالمية، والقسم العالمي لهيئة الاذاعة البريطانية...)، وفي نشراتها المتناولة للموضوع.

ويشير الباحث إلى أن المتوفر عن هذا المجال باللسان العربي ضعيف جداً، كماً وكيفاً.

ومن ثمة كان يسعى الباحث أن يقدم في الموضوع اضافة للمكتبة العربية. وبذلك يصل ماقُطع بسبب الاستعمار والتبعية الثقافية في أفريقيا الغربية، فيستعمل تقليداً قديماً هو الكتابة باللغة العربية، كما فعل أحمد بابا التمبكتي وأحمد بن قرتوة وعبدالرحمن السعدي.

* الكنيسة وأفريقيا:

وجود المسيحية قديم في أفريقيا. فلقد تأسست فيها كنيستان عريقتان، مستقلتان عن الكنائس الأوروبية: الكنيسة القبطية في مصر والكنيسة الحبشية.

وقد قامتا بدور كبير في تاريخ القارة، ولكنه لم يكن دوراً استعمارياً أو استعبادياً. كما أن بناءهما العقدي، يختلف اختلافاً بيناً عن العقيدة الكنسية الغربية. فهما لاتقولان بطبيعتين في المسيح (الألوهية والناسوتية) مثلها: «**وإنما بطبيعة واحدة، وهي الألوهية**»(وهو مايُعرف عند اللاهوتيين بـ«ا**لمروفيزية**»، تماماً مثل الكنيسة الأرمنية والسريانية واليعقوبية والهندية.

لقد أدى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢، إلى اصرار المنتصرين على تعقب المسلمين في عقر دارهم أو سد الطرق التجارية عنهم. وتفرغوا لاعداد سفن عملاقة لارسال البعثات الاستكشافية إلى أقاصي العالم، خاصة الهند بلاد التوابل وأفريقيا ماوراء الصحراء بلاد الذهب، وتابعتهم في ذلك الدول الأوروبية الكبرى.

لقد كان «الاكتشاف» يعني طمساً يبدأ بتغيير الأسماء الجغرافية الأصيلة مثل بحيرة «**فيكتوريا**»، وبحيرة زوجها «**ألبرت**»، ونهر «**النيجر**» (يسميه الأهالي «**جالبة**»)، وأصبحت الأماكن تحمل وسماً تبعياً للغرب، ووسماً عنصرياً (النيجر، نيجيريا، مثلاً)...

لقد كان الاكتشاف يعني الاستعمار، بتعلة الرسالة الحضارية لقارة متوحشة، هذا في حين أن أفريقيا قارة حضارات عُظمى مثل الحضارة المصرية (ذات الأصل الحامي)، وحضارة النوبة والحضارة الحبشية والحضارة الكونغولية وحضارة مملكة مالي ومملكة غانا... إنها موطن ديانات عظيمة ومنظومات معقدة من القيم والتصورات

الكونية والبناء الاجتماعي والسياسي والمعاشي والاختيارات اللباسية والفنية (نحت، رسم، رقص، موسيقى...) واللغات المختلفة...

فالتوحش الحقيقي كان أوروبياً: تقتيل الأهالي للسيطرة عليهم، استرقاق الكثير منهم، نهب معادنهم وثرواتهم الباطنية والغابية والفلاحية.

وقد رفدت الكنيسة الأوروبية، من سوء الخظ، هذا المجهود الاستعماري، بمساعدته السيطرة على الإنسان الأفريقي من الداخل، أي ثقافياً، فإذا كان ذلك، كان التمكن النهائي من القارة الأفريقية وخيراتها.

و«*بناء على هذا، تم تركيز الكنيسة الكاثوليكية في جزيرة غوريه بالسينغال عام ١٩٤٦، وبعثت الكنيسة الميتودية البريطانية في مدينة باتورست بغمبيا، وحلت الكنيسة السويسرية «بازال» بساحل الذهب (غانا). وأنشئت المدن التجارية والتبشيرية في كل من سيراليون وليبيريا، وكل السواحل الغربية الأفريقية*».

* الكنيسة والرق:

لقد مارس بعض المسلمين من عرب وأمازيغ الرق في أفريقيا، بمساعدة من بعض الملوك ورؤساء القبائل أحياناً. ومن حسن الحظ، أن ظهر في التاريخ الإسلامي رجل اسمه «**علي بن محمد**» وثورة اسمها «**ثورة الزنج**»، وثورة أُخرى اسمها «**ثورة القرامطة**» تقيم فهماً آخر للإسلام، يضرب في العمق «**الفهم**» المؤيد للاسترقاق في الإسلام.

ورغم ذلك، فبشاعة الاسترقاق الأوروبي للأفارقة الذين حملوا بعض السود إلى اشبيلية ولشبونة منذ الحملات الاستكشافية الأولى، وفي أمريكا، استخدموا «**الهنود الحمر**»، ولكنهم كانوا قاصرين عن تلبية حاجات المستعمرين، فاقترح القس الاسباني *بارتولوميه دي لاكازا* تعويضهم بالسود الأفارقة. وفي ذلك يقول *بلايدين*: «**على الرغم من أن البشرية شهدت مآسي عديدة في بعض شعوبها، فإن السود ذاقوا من المسيحيين الغربيين مالم تذقه أي أُمة في الأرض. فيكفي أن يكون الذي كان سبباً في نقل الزنوج من موطنهم إلى أمريكا رجل دين...**».

إن بريطانيا التي تفتخر بأنها أول دولة ألغت الرق، كانت قد احتكرت نقل العبيد في سفنها، من القارة الأفريقية إلى أمريكا طوال ثلاثين عاماً، وكان معدل الحمولة سنوياً

حوالي ٤٨٠٠ شخص، وذلك من ١٧١٣ حتى ١٧٤٣، حتى قال بلايدين: «**إن هذه الجريمة ذهبت بكل مايمكن أن تفتخر به بريطانيا**».

فقد تنافست الدول الأوروبية في تجارة الرقيق، فأنشأت فرنسا شركة غينيا الفرنسية، وأنشأت انكلترا شركة بحر الجنوب... لقد قامت أوروبا باستنزاف بشري ضخم، قدره بعضهم بـ٢٠ مليوناً، وآخرون بـ٧٠ مليوناً، ولكن هذه التقديرات غير وافية بالعدد الصحيح. فهناك عدة رحلات غرقت في المحيط بعبيدها ونخاسيها، وهناك رحلات سرية زمن حظر بريطانيا للنخاسة، وهناك نسبة عالية من العبيد ماتوا قبل الوصول إلى الساحل الأمريكي، «**بالاضافة إلى أن القنص كان يتم بالعنف، وهذا ماخلف عدداً هائلاً من الموتى والجرحى داخل القارة، والذين لم يكن من الممكن احصاؤهم**».

واستمر الاستنزاف بعد حظر الرق التقليدي، إذ حمل العديد من الأفارقة قسراً للدفاع عن الاستعمار ضد الثورات في فيتنام وشمال أفريقيا وحتى في أفريقيا ماوراء الصحراء نفسها. كما حملوا قسراً في الحربين «العالميتين» اللتين دارتا بين الدول الاستعمارية، فقتل ثلثا المحمولين أو ماتوا بالأوبئة.

وبعد الـ«**تحرير**» الظاهري لأخلاف الرقيق في أمريكا «**كانوا يهيمون على وجوههم بدون مقر معترف به وعمل قار**»، فاندفع توماس جيفرسون إلى اعداد مستعمرة لهم في «ليبيريا».

لقد كان بعض رجال الدين الأوروبيين على أحد موقفين.. فبعضهم يرون شرعية استرقاق السود انطلاقاً من سفر التكوين (٩:٢٠-٢٧) الذي جاء فيه أن حاما ابن نوح أبا الكنعانيين، وجد أباه نوحاً نائماً، وكانت عورته بادية، فأخذ يضحك عليه، ولما جاء أخواه سام ويافت سترا أباهما. فلما استيقظ نوح، دعا على حام بأن تكون ذريته عبيداً.

وبعضهم الآخر، كانوا يرون عدم شرعية الرق، ولكنهم يرونه السبيل الوحيد لاخراج الأسود من عالمه المظلم إلى نور الحضارة والإيمان، فكانوا يقومون بتعميد الزنوج مقابل عائد مادي من النخاسين، زاعمين أنهم يطردون الشياطين منهم. وكانوا يرفضون تعميد أبناء الزواج المتعدد، بتعلة أن الرب لايعترف بانحدارهم، باعتباره زنى، فهذا الشق أيضاً، متواطئ مع الاسترقاق.

ومن حسن الحظ أن كانت هناك أقلية من رجال الدين بأمريكا معارضة للاسترقاق منذ القرن السادس عشر، ولكنها كانت أقلية ضعيفة عددياً، ليس بإمكانها التأثير في قرارات الكنيسة.

* الكنيسة وتقسيم القارة الأفريقية:

يقدم الباحث هنا عدة قرائن على التعاون بين الكنيسة والمستعمرين:

- اشتعلت الحرب بين بريطانيا ومملكة أشانتي (في أفريقيا الغربية)، فتعاونت الدولة الاستعمارية مع البعثات التبشيرية لخبرتها بالساحة، وقامت بعض البعثات بتجنيد بعض أتباعها للمحاربة في صفوف الجيش البريطاني.
هذا ماجعل ملك أشانتي يعتبر المبشرين أعداء للمملكة، واعتقل عدداً كبيراً منهم، ولم يفرج عنهم إلا بعد أن انتهت الحرب.
- عندما اشتعلت الحرب بين البريطانيين والزولو (في جنوب أفريقيا)، طلبت البعثات التبشيرية من بريطانيا أن تتدخل وتحتل المنطقة كلها، بدعوى أن السود متوحشون لايسهلون للكنائس عملها...
- بالرغم من أن علاقات الجمهورية الثالثة، بفرنسا، سيئة بالكنيسة، فإنها شجعت البعثات التبشيرية داخل القارة الأفريقية. قال أحد سياسييها (غامبطاً) آنئذ: «**إن سياسة معاداة الكنيسة واهمالها سياسة فرنسية قارة لارجوع عنها، ولانقاش فيها. ولكن يجب أن تكون هذه السياسة داخل فرنسا فقط، إذ لايمكن تصديرها إلى الخارج، لما في ذلك من أضرار على مصالح الأمة**». ففرنسا اعتبرت نفسها منذزمن طويل «**يد اللّـه الطيعة لنشر المسيحية**»، بتأسيس الجمعيات التبشيرية في القارة، بل كان أحد أبرز من نظم شؤون المستعمرات الأفريقية رجل دين: «*برازاً*» الذي مازالت المدينة الكونغولية تحمل اسمه: «**برازافيل**».
- إن بلجيكا كاثوليكية، ولكنها تعاونت مع البعثات البروتستانتية (الأمريكية والبريطانية)، لأنها كانت تخاف فرنسا والبرتغال الكاثوليكيتين، اللتين تفكران مثلها في الكونغو. فما إن استقرت لها الأوضاع هناك حتى ضايقت تلك البعثات لتحل محلها مبشرين كاثوليكا من بلجيكا.

فـ«التبشير إذن، لم يكن كما يظن بعضهم، جهازاً دينياً أو إنسانياً منفصلاً عن الأغراض الأوروبية في العالم، بل حتى ماقيل حول فصل الكنيسة عن الدولة، لم يكن إلا منهاجاً قابلاً لتأويلات كثيرة».

* الكنيسة في الفترة الاستعمارية:

أحد التقارير الفرنسية ينص على: «**إننا نريد من المدرسة الغربية أن تلعب دوراً مزدوجاً في هذه المنطقة، وخاصة سياسياً. ذلك لأنه في مثل هذه الظروف، يتداخل ماهو سياسي بما هو ثقافي. ولذلك، فلايمكننا أن نترك المدارس القرآنية دون تسيير، لأنها قد تفشل رسالتنا التمدينية**». **والقس الليبيري الأسود «بلايدين» عندما أخذ بعض المبشرين البيض إلى قُرى المسلمين، فوجئ معهم، بأن المدارس القرآنية لم تكن مجرد مؤسسة للترديد الببغائي، فقد وجدوا عندهم «كل أنواع التفاسير، من البيضاوي والزمخشري، إلى غيرهما، أما من ناحية الفقه، فقد وجدناهم فقهاء كباراً في المذهب المالكي...».**

وكان المسلمون الأفارقة يعرفون هدف المدارس الاستعمارية، واعتبروها غير مختلفة عن المدارس التبشيرية، ولكن دخول الكثير من المتنصرين الأفارقة لها سمح لهم بالرقي الاجتماعي، ليصبح البعض منهم نخبة سياسية واقتصادية تتحكم أحياناً بالأكثرية المسلمة.

فعلى الرغم من عدم نجاح الكنيسة الأوروبية في تكوين نخبة كما تريدها فإنها نجحت في تكوين نخبة ما. فمن بين الرؤساء «**الذين تقلدوا مقاليد الحكم عدد هام من المسيحيين، وإن وجد بعض المسلمين، فإنهم لايشكلون أي ضغط**». فالتشاد ذات الأكثرية المسلمة باطلاق، نجد فيها الأقلية المسيحية مسيطرة على أجهزة الدولة، وكذلك بوركينا فاسو وأوغندة حيث يعتبر المسلمون والوثنيون مواطنين من درجة ثانية.

ولكن الكثير من الذين تربوا في المدارس التبشيرية، والذين كانت تنتظر منهم أن يكونوا درعاً واقياً ضد الشيوعية العالمية، أصبحوا لينينين وتروتسكيين وماويين، وكثيراً ماحولوا الكنائس إلى نواد لمناقشة المبادئ الثورية الماركسية، وكثيراً ماأصبحت قبابها ودهاليزها مخابئ للثوار المحاربين للمستعمرين. بل نلاحظ ظهور كنائس مستقلة عن الكنيسة الأوروبية في اللاهوت والسياسة، مبدلة تمثال العذراء البيضاء ذات الملامح الأوروبية إلى مريم أخرى سوداء، ومبدلة تمثال المسيح ذا الملامح الأوروبية إلى تمثال أسود، وظهرت فكرة أن المسيح المخلص للسود لم يأت بعد.

* الكنيسة إبان الاستقلال:

في بدايات استقلال الدول الأفريقية، طُرد الكثير من المبشرين واعتقل بعضهم، حتى من قبل الحاكمين الذين درسوا عندهم، بتعلة مضايقة الحاكمين بحديثهم عن حقوق الإنسان في تلك البلدان، وخاصة الحقوق السياسية، مرددين اتهامات الدول الغربية، التي استعمرت بلدانهم سابقاً.

وهذا من المفارقات، إذ لما كانت حقوق الإنسان ينتهكها المستعمر الغربي، لم تنبس الكنيسة ببنت شفة: فلما أصبح الانتهاك أفريقياً، كان الاحتجاج الكنسي. هذه المفارقة، جعلت حتى من نكرومة الذي تربى في حضن الكنيسة بغانا، يهاجمها.

وقد كان الموقف الكنسي هذا، محاولة لايجاد وجه إنساني لقطع الطريق أمام المد الإسلامي. فقد تقدم الإسلام في ظل الاستعمار نحو الجنوب، تقدماً «**لم يحققه خلال عشرة قرون قبل مجيء الاستعمار الأوروبي إلى القارة**»، لأنه كان يمثل للأفارقة المضطهدين رسالة تحررية واستقلالية.

كما أصبحت الكنيسة تحاول استرضاء الطموحات الأفريقية، وتسامحت مع العادات الأفريقية مثل تعدد الزوجات والتداوي السحري، وتؤيد التحرر الوطني الأفريقي، وتندد بالتمييز العنصري في جنوب أفريقيا، ومنح رجال الدين الأفارقة جوائز عالمية كبرى مقابل مواقفهم من التمييز العنصري. وكان البابا في مقدمة هذا التغيير، إذ يقوم بعدة زيارات لأفريقيا كل عام.

ولذلك انقلب الوضع الديمغرافي لفائدة الكنيسة بالقارة. فعام ١٩٥٦، كانت نسبة المسيحيين بالقارة في حدود ١٣٪، مقابل ٥٧٪ للمسلمين. أما في عام ١٩٩٢، فقد أصبحت نسبة المسيحيين ٤٦٪، مقابل ٤١٪ من المسلمين. نظراً للمجهود الكنسي من جهة. وللخور الثقافي والتبليغي الإسلامي المعاصر. حجماً وكيفاً ومضموناً، بل أمكن للكنيسة الأوروبية أن تنصر جماعات قومية كانت مسلمة منذ عدة قرون.

* الكنيسة في المستعمرات البريطانية (نيجيريا نموذجا):

رغم أن العربية، لغة معروفة قبل الاستعمار وبعده، ورغم أن ٥٠٪ من مفردات لغة الهاوسا عربية، ورغم أن بعض الأناسين يرجعون الهاوسا إلى أصول عربية، ورغم استعمال العربية في الكتابة قروناً، ورغم أن مسلمي نيجيريا أكثر عدداً من مسلمي شمال أفريقيا قاطبة، فإن حظ العربية في البلاد تعيس جداً حالياً.

لقد جاء الدين الإسلامي إلى البلاد منذ القرن الثامن الميلادي، وانتشر في الشمال

لدى الهاوسا، متألقاً مع الوثنية. ثم جاء الفولانيون، وعلى رأسهم عُثمان دان فوديو، وضم ممالك الهاوسا وبلاد «جوبيركبى»، مكوناً مملكة واسعة، عاصمتها «**سوكوتو**»، قبل أن يوحد ورثاؤه مايسمى اليوم بـ« **نيجيريا** ». رغم اتخاذ الانجليز «**لاغوس** » محمية، في نهاية القرن الثامن عشر.

ولكن نزاعاً قام بين ابني عُثمان دان فوديو، جعلت أحدهما يستنجد بالبريطانيين، فناصروه ونصبوه على العرش، عاقداً معهم معاهدات تضمن توسيع أعمال التبشير المسيحي والسماح للبريطانيين بإقامة معسكراتهم أين يريدون. ولكن زعماء البلاد امتنعوا عن توجيه تجارتهم نحو «لاغوس»، وتطور الأمر إلى الصدام، فاستعملت بريطانيا كل الوسائل التدميرية حتى كان خضوع المسلمين عام ١٩٠٣.

لقد اعتنى المستعمر بالجنوب أكثر، رغم أنه أقل سكاناً، من حيث المرافق والتعليم والصحة. وقد سعى إلى تنصير الجنوبيين لأن الثروات الطبيعية موجودة بالجنوب أكثر، وتنصيرهم يجعله أكثر اطمئناناً عليها، مستعيناً بالبعثات الكنسية.

بعد الاستقلال، تكونت أول حكومة وطنية منتخبة، كان فيها زعيم المسلمين رئيساً للوزراء، بينما كان أحد الجنوبيين رئيساً للجمهورية. ولكن سرعان ماكان الانقلاب العسكري المسيحي (١٩٦٦/١/١٥)، مطيحاً بالحكومة الشرعية، وبالتنظيم الفيدرالي للبلاد، جاعلاً كل المسؤولين من الجنوب المسيحي. ولم تدم هذه الحالة، إذ قام انقلاب عسكري جديد لاعادة الوحدة الوطنية، ولكن الحاكم العسكري لمنطقة «**بيافرا** » الغنية بالنفط والمناجم أعلن التمرد. فكانت الحرب الأهلية التي دامت ٣ سنوات.

إن الريبة والصراع المسيحي – الإسلامي في نيجيريا، من تأثير القوى الإمبريالية، ومن الضروري أن يسعى الطرفان إلى تهيئة الجو المناسب الذي يجعل الأخوين يقبلان بعضيهما.

* الكنيسة والسينغال:

إن السينغال هي البوابة التي «**عن طريقها عبرت فرنسا إلى كامل أفريقيا الغربية. ومنها، أيضاً، تزودت بأعداد هائلة من الجنود نحو مزيد من الغزو وضم الأراضي**». وهي موقع سوقي (استراتيجي) بين القارتين الأمريكية والأفريقية، بأقرب نقطة بينهما، وهي الرأس الأخضر. ولذلك أقامت فيها فرنسا أكبر قاعدة عسكرية خارج ترابها.

إن السينغال أول بلاد أفريقية قبلت الإسلام بشكل ملفت للنظر، وتكونت فيها نخبة

مثقفة متينة التكوين طيلة قرون، وقد كتبت باللغة العربية العديد من الكتب الفقهية والتصوفية والمصنفات اللغوية والشعرية. هذه البلاد تمكن فيها رجل مسيحي من أن يحكم أكثر من ٩٥٪ من المسلمين، وذلك لتمكن النموذج الغربي الحديث من نفوس مثقفيها المعاصرين.

لقد أسلمت السينغال، حسب أرجح المصادر في القرن السابع الهجري أي قبل إسلام شمال أفريقيا. وقد وجد المرابطون مجتمعاً محكم الإسلام هناك، مما مكنهم من تكوين جيش جرار سمح لهم ببناء دولة عظيمة امتدت بين أفريقيا الغربية والأندلس والمغربين الأقصى والأوسط. وانتماؤهم الشديد للإسلام جعل فيدربا الحاكم الفرنسي (١٨٥٤ - ١٨٦٥) يصف السكان الفولانيين بأنهم «**قوم أذكياء ومحتالون بطبيعتهم، فلما جاءهم الإسلام حولهم إلى كذابين كبار وسراقاً مهرة، أكثر من العرب أنفسهم**».

أول عمل تبشيري بالمنطقة، كان برتغالياً، في نهاية القرن الخامس عشر، بعد سقوط غرناطة، ولكنه كان فاشلاً. ثم أسست الجمعية الفرنسسكانية مواقع في كامل المنطقة، ولم يحققوا إلا نجاحاً جزئياً مع الوثنيين والعبيد الهاربين. وكانت البعثات التبشيرية الفرنسية والانكليزية في تنافس محموم لخدمة القوتين الاستعماريتين، في مدينة سان لوي. فلما انتصت فرنسا في الصراع، جلبت قساً من رومة، وتأسست طائفة سان جوزيف ومدرسة لتدريب الإناث عام ١٨١٩، وتبعتها مدرسة أُخرى في جزيرة غورية عام ١٨٢٢، وبالتوازي، قامت فرنسا بعمليات تدميرية ضخمة، فهاجمت عُمر تال شيخ الطريقة التجانية، وأتلفت آلاف الكتب الإسلامية المكتوبة باللغات العربية والفولانية والولفية، وذلك بدعوى محو الثقافة البربرية، استعداداً لادخال السكان إلى الحضارة.

ركزت الكنيسة على مناطق «**السرير**» الوثنيين، وأصدرت قواميس في اللغة الفولانية والولفية بالحروف اللاتينية، لقطع صلتيهما باللغة العربية التي استعملتا طيلة قرون حروفها، وللتحبيب في اللغة الفرنسية أيضاً.

وقد دعمت فرنسا الأقلية المسيحية سياسياً واقتصادياً وثقافياً. فالنواب السينغاليون بالبرلمان الفرنسي كانوا كلهم مسيحيين، وجل هؤلاء المسيحيين أجانب ملونون وطنوا بمدينة سان لوي. وقد كان هؤلاء الملونون وراء سياسة الدمج الفرنسية في الثلاثينيات، بينما كان نصيب شيوخ التجانية الرافضين للسياسات الفرنسية السجن والتعذيب والنفي إلى الغابون وإلى جزر المحيط وتونس وفرنسا.

ولكن بعض شيوخ التجانية، كان همهم المال والمصالح الشخصية، فتحالفوا مع فرنسا، ثم مع السلطات الموالية لها بعدها.

وكثيراً ما اتهمت الدولة الوطنية المعارضين المسلمين بالعمالة لهذا النظام العربي أو ذاك. وفي عام ١٩٩٠، تظاهر بعض حملة الشهادات الجامعية مطالبين السلطة بتشغيلهم، ولما أراد زملاؤهم من حملة الشهادات العربية الإسلامية مشاركتهم، رفضوهم. فوجود الثقافة العربية الإسلامية في السينغال في حالة خطيرة لدى المسلمين أنفسهم، وقد زادت الطرق الصوفية بتقليديتها والحركات الإسلامية الوافدة الأمر تعقيداً، علاوة على تشبث النخبة المسيحية بإرثها الاستعماري.

الخاتمة:

١ - إن هذه الأطروحة عمل جاد. ينبغي افادة المكتبة العربية به، بطبعه في أقرب وقت، وكذلك بترجمته.

إنه يمثل امتداداً نقدياً وحداثياً لأفريقيا الإسلامية. كما يمكن اعتباره لبنة متينة في اعادة التعاون الثقافي بين أفريقيا والعالم العربي، بعد انقطاع ليس بالقصير.

٢ - ينبغي على مسلمي أفريقيا أن يحملوا، في نظري، إسلام علي بن محمد ودولة الزنج ودولة القرامطة، الذي قطع مع التمايز العرقي والتفاوت الاجتماعي. فإنهم إذا كانوا حاملين لإسلام ماوردي أو أموي أو رقي، فإن وجودهم سيواصل في التراجع الديمغرافي والسياسي لدى الأفارقة. فحملهم لإسلام تقدمي، في صالح استقلال القارة عن الهيمنة الغربية وهيمنة نخبها التابعة.

كما على المسيحيين الأفارقة، أن يحملوا لاهوتاً تحريرياً يؤمن بما طرح المسيح: «**من كان عنده ثوبان، فليعط من لاثوب له، ومن كان له طعام، فليفعل كذلك**»، «**طوبى لصانعي السلام**». وفي ذلك مصلحة للقارة، إذ تنفصل عن المسيحية الرومانية والأوروبية الاضطهادية، اللصوصية، التي قتلت المسيح ثم مشت وراء نعشه، وتعاونت مع الاستعمار.

فإذا التقى الإسلام والمسيحية في أفريقيا، على هذا، كانا ديناً واحداً، باختلافات لاقيمة لها، وكانا «ناراً» واحدة على الامبريالية والتبعية والضعف المعرفي والاقتصادي والثقافي والتمايز الاجتماعي.

٣ - من المؤاخذات الشكلية التي أُشير بها للباحث:

أ - كلمة «**إفريقيا**»، ليست من نحت الرومان، كما جاء في الأطروحة (ص٢)، فهي اسم علم أمازيغي الأصل يعني سكان الشمال الغربي التونسي في البادية. ومازالت المنطقة تسمى في الاستعمال التونسي «**إفريقا**». وهناك قرية بالجهة تسمى «**الأفارق**» والمنتسب إليها «**إفريقي**»، تماماً مثل المنتسب إلى «**إفريقيا**».

ب - استعملت مصطلح «**بربر**» (ص٢ مثلاً)، للدلالة على سكان أفريقيا الشمالية الأصليين، في حين أن هذا المصطلح مصطلح إمبريالي روماني يعني «**المتوحشين**»، أي غير ذوي الحضارة الرومانية واليونانية، وخاصة المتمردين على السلطان الروماني، لتلتصق خاصة بهذا الشعب. علينا أن نسمي الناس بأسمائهم، فاسمهم الحقيقي هو «**الأمازيغ**».

ت - ذكرت ص٢٣ أن **جميلة** «**نشيد الأناشيد**» التي تغزل بها النبي سليمان هي ملكة سبأ، دون دليل، في حين أن النص لايؤيد ماذهبت إليه: «**أنا سوداء، وجميلة، يابنات أورشليم. كخيام قيدار، كشقق سليمان. لاتنظرون إلي لكوني سوداء لأن الشمس قد لوحتني، بنو أُمي غضبوا علي، جعلوني ناطورة الكروم...**». فهذه السوداء الجميلة، لم تكن ملكة، بل كانت أمَة محتقرة، تحرس الزرع. وقد تكون، حسب سياق النص، أمَة قبيلة قيدار العربية التي كانت تسكن تدمر والجنوب الشرقي من مدينة دمشق. إن النص ينطق بثورة على الرق والتمييز العرقي باسم الحب.

ث - استعملت الأحرف اللاتينية، معيداً بذلك كتابتك بالعربية لبعض أسماء الأعلام، أحياناً (ص٨٣، ٨٤ مثلاً)، في حين أنه كان عليك أن تشكل الأحرف العربية، وبذلك لن تكون هذه الأحرف العربية عن استيعاب منطوق لغات أفريقيا الغربية بعاجزة.

وأنت تعلم جيداً أن الأحرف العربية قد طوعها الأسلاف بنجاح، في سبيل ذلك. ولقد كان في إمكانك أيضاً أن تستعمل طريقتهم في رسم الإمالة (التي لانجدها في العربية الفصحى)، بل كان بإمكانك أن تستغل هذه الفرصة من أجل الحوار الحضاري مع العرب، من جهة، وأن تثبت سلامة توجه الأسلاف إلى الحرف العربي من جهة أُخرى، عن طريق اعادة كتابة تلك الأسماء باسلوبهم بالضبط نقلاً عن مصادرهم نفسها.

جـ - خالفت أحياناً الطريقة السائدة في كتابة بعض أسماء البلدان («نيجريا» عوض «نيجيريا» مثلا). فإن كان ذلك عن موقف شخصي واضح، فلماذا لم توضحه؟ بل كان على الباحث أن يطلعنا على التسمية الفولانية (مثلا) لهذا المكان أو ذلك، أو هذا الشخص أو ذاك، على الطريقة الفولانية في تطويع الحرف العربي. فقد كانت فرصة لكسر هذا الصمت القاتل والجهل المقيت بين العرب والأفارقة راهناً!.

حـ - اقترح على الباحث الاهتمام بالجانب التطبيقي في العمل التبشيري، باعتبار أنه ادعاء إنسانية، في حين أنه سيطرة على الجسد، ومن ثمة توجيهه.

خـ - أطلقت مصطلح «إمبراطور» على عُثمان *دان فوديو* (ص١)، في حين أن لهذا المصطلح دلالته اللغوية اللاتينية الخاصة وسياقه السياسي - الاجتماعي الأوروبي الخاص أيضاً.

فيما عدا ذلك، تحية إلى هذا الباحث المقدام، الذي تضج أطروحته هذه بوعود ومطامح معرفية وحضارية عظيمة. هنيئاً لنا بهذه اليد الأفريقية، فلنمد لها أيدينا في هذه الحرب الحضارية الضروس. قال *علي بن محمد البصري*، صاحب الزنج:

رأيت المقام على الاقتصاد	قنوعاً به، ذلة في العباد
إذا النار ضاق بها زندها	ففسحتها في فراق الزناد
إذا صارم قر في غمده	حوى غيره السبق يوم الجلاد